



الكتابة والبدء...





الكتابة رزق...

رُزق التصنيف...

عبارة تتردد كثيراً في كتابات المؤرخين في وصف شخص مُمّن برع بالتصنيف، وسارت كتبه في الآفاق، فقد قيلت هذه الكلمة على سبيل المثل في حق ابن فارس، والمجاشعي، والجوهري^(١).

وهي تشير إلى أن التصنيف والتأليف (رزق) من الله ﷻ يهبه لمن يشاء، وليس كل من خطَّ سوداء في بيضاء أضحى من أصحاب المصنفات؛ فالتصنيف لا يكتمل إلا بالقبول له، فإذا لم يكن له قبول فالكتابة لم تكتمل بعد.

قبل الإتقان وبعده (توفيق الله) ﷻ، الذي لا يُنال إلا بالإخلاص له وسؤاله التوفيق والتسديد... وهذا (سر) ليس بيد الكاتب؛ وهذا تجده كثيراً في الكتب؛ فقد

(١) انظر: نزهة الألباء (ص ٢٧٩)، إنباء الرواة (١٦١/٢)، معجم الأدباء (٦٥٨/٢)، الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص ٢٧٦).

ترى الكتاب المَجُود لا ينال حظوة وقبولاً كما نال الكتاب الأقل منه جودة؛ فالكتب كالرَّجال شهرة وذيو عاً وقبولاً ورفضاً.

وحين يقدم الكاتب (الاستخارة) قبل الكتابة، يكون متعلقاً بالله من أول سائحة خطرت له، وحرى أن يعينه الله.



قال الإمام أبو جعفر الطبري: «استخرت الله تعالى في عمل كتاب التفسير، وسألته العون على ما نويته ثلاث سنين، قبل أن أعمله، فأعانتني»^(١).

وقال الإمام ابن خزيمة: «كنت إذا أردت أن أصنف الشيء أدخل في الصلاة مستخيراً حتى يفتح لي، ثم أبتدئ التصنيف»^(٢).



وملازمة (الدعاء)، والإكثار من (العبادة)

يتطلب بهما الكاتب التوفيق والنجاح، فكتاب (الجمال) للزَّجاجي قال عنه القفطي: مبارك؛ ما اشتغل به أحدٌ إلا انتفع؛ الزَّجاجي -رحمه الله- صنف الجمال بمكة حماها الله، وكان إذا فرغ من بابٍ طاف أسبوعاً، ودعا الله تعالى أن يغفر له، وأن ينفع به قارئه، فهذا انتفع به الطُّلبة^(٣).

(١) معجم الأدباء (٦/٢٤٥٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٩).

(٣) إنباء الرواة (٢/١٦١).



وهذا الجرمي النحوي كلما صنف باباً من كتابه صلى ركعتين بالمقام، ودعا بأن يُنتفع به، ويبارك فيه. قال أبو علي الفارسي: «قل من اشتغل بمختصر الجرمي إلا صارت له بالتحوصناعة»^(١).

الشيخ أبو إسحاق الشيرازي لا يذكر في (المهذب) مسألة إلا بعد أن يصلي ركعتين، ويستخير الله تعالى فيها، كما فعل البخاري في الصحيح، وهو كتاب مبارك^(٢).

قال أبو قاسم الشاطبي صاحب الشاطبية: «لا يقرأ أحد قصيدي هذه إلا ونفعه الله ~~بها~~ بها؛ لأنني نظمتها لله تعالى»^(٣).

التصنيف (رزق) من الله، ابتداءً بالفكرة، وانتهاءً بآخر حرف يخطه، فليتطلب رزق الله وتوفيته.

والإخلاص في التأليف
(عزيز)، وهذا الشيخ
عبد السلام الحسيني
«اعتذر عن عدم الإكثار من
التصانيف والتصدي لها:
بأنه ليس من عدة الموت؛
لعدم الإخلاص فيه»^(٤).

ومن أجل هذا عزف كثير من العلماء عن التأليف مع الأهلية التامة؛ خوف الشهرة^(٥).

وفي ترجمة الإمام الماوردي صاحب المؤلفات المشهورة «قيل: إنه لم يظهر شيئاً من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلما دنت وفاته، قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأنني لم أجد نية خالصة، فإذا

(١) نزهة الأتباء (ص ١٢٧).

(٢) انظر: إنباء الرواة (٢/٢٨٨)، الدر الثمين في أسماء المصنفين (ص ٢٤٩).

(٣) إنباء الرواة (٤/١٥٥).

(٤) الضوء اللامع (٤/٢٠٣).

(٥) انظر: كتاب الحكمة العربية (ص ٤٠٢).

عائنت الموت، ووقعت في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضت عليها وعصرتها، فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمد إلى الكتب، وأنقها في دجلة، وإن بسطت يدي، فاعلم أنها قبلت. قال الرجل: فلما احتضر، وضعت يدي في يده، فبسطها»^(١). وقال ابن عيَّشون في كلام طويل عن محركات التأليف: «أما توالي في فأكثرها، أو كلها غير متممة في مبيضات... وهذه الأعمال لا ينشط إليها إلا المحركات التي هي مفقودة عندي.



أحدها: طلبة مجتمعون متعطشون إلى ما عندي، متشوفون غاية التشوف، وأين هذه بالمرية (وهي مدينة بالأندلس). الثاني: طلب رئاسة على هذا، متى يرأس أحد بهذا اليوم؟ وعلى تقدير أن يرأس به - وهو محال في عادة هذا الوقت - فالتشوف لهذه الرئاسة مفقود عندي.

الثالث: سلطان يملأ يد من يظهر مثل هذا، على يده غبطة، وما تم هذا. الرابع: نية خالصة لوجه الله تعالى في الإفادة، وهذا أيضاً مفقود عندي، ولا بد من الإنصاف. الخامس: قصد بقاء الذكر، وهذا خيال ضعيف بعيد عني. السادس: الشفقة على شيء ابتدئ، وسعي في تحصيل مباديه: أن يضيع، على قطع ما سوى هذا الإشفاق، وهذا السادس، هو الذي في نفسي منه شيء...»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٦٦).

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة (٢/١٥٠)، بواسطة كتاب الحكمة العربية (ص ٤٢٨).



ابتکار...

لا يُولد الشخصُ ومعه (قلم) يتدفَّق كلمات، أو (يدٌ) تصفِّفُ الجمَل، وتصنِّعُ الحُرُوف.



إنما (العادة) -التي هي طبيعة ثانية للإنسان^(١)- تعمل على تشكيل شخصية الكاتب، وتجعل من الصُّعوبة الانفكاك عن الكتابة أو هجرها.

لا ريب أن (الموهبة) أو (الطبع) - بحسب تعبير المتقدمين - تؤثر في اكتساب الكتابة. قال ابن الأثير: «ملاك هذا كله الطبع؛ فإنه إذا لم يكن ثمَّ طبع فإنه لا تفني تلك الآلات شيئاً»^(٢)، ولكن الطبع - كما قال ابن حزم - لا يتفع مع عدم التوسع في العلوم^(٢).

(١) كما يقول أبقراط، انظر: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء (ص ٤٩).

(٢) المثل السائر (١/٣٨). وانظر: رسالة في علم الكتابة لأبي حيان (ص ١٠).

(۳) رسائل ابن حزم (۴/۳۵۳)۔

كل كاتب (ابتكار) واختراع

يصبح المبتكر كاتباً عظيماً يقرؤه الناس جميعاً، أو يصبح عظيماً، لكنه لا يحظى بتقدير كبير بين معاصريه، أو يصبح كاتباً رديئاً، لا أثر له ولا وجود. من المهم أن يتحقق الابتكار قبل أن (يحدث) أي من هذه الأمور، التي هي مجرد نتيجة، ولا يكون الابتكار دفعةً واحدةً، وإنما دفعات وعلى فترات، ولا ينتهي أبداً.

فالأمر يتعلق بـ (صنع) الكاتب، لا بصنع عمل كتابي معين، فالكتاب يصنع وحده من خلال ابتكار الكاتب المُعَد لذلك^(١).

إن (الموهبة) أو (الطبع) قضية مبهمة محاطة بعدم اليقين، تصاحبها اعتقادات في القديم والحديث تعطيها هالة وقداسة، وأنها نوع اصطفاء واختيار، و(إلهام) ينزل على الكاتب بغتة، وأن الكلمة - في تعبير أحدهم - كحربة البرونز في داخلي، إذا لم أُفْرَج عنها مَرَّقت لحمي^(٢).

(الموهبة) ما هي إلا استعداد فطري ذو أصول غامضة ومتنوعة تدفع إلى الكتابة دفْعاً، فهي دافع وحافز على العمل، وأحياناً هذه (الموهبة) لا تظهر إلا عبر سياق طويل، وسنوات من الانضباط والمثابرة، فتظهر حينئذ بعد جهد وزمن طويل. لا شك أن الذين ولدوا ولديهم (الموهبة)، أو من يمتلك (دافعاً) أو (حافزاً) للكتابة من صغره، هم الأفضل من الناحية (النظرية)، لكن لا شك أيضاً أن

(١) انظر: الكاتب والآخر لكارلوس ليهكانو (ص ٥٠، ص ٩٠)، في الشاء على ما يبقى (ص ٥٦).

(٢) والكلمات تعرف الغضب لقباني (ص ١٨). وانظر: اعترافات روائي ناشئ لأميرتو (ص ٢٣).

(الإصرار) والاجتهاد في الكتابة و(التدريب) و(التصميم) على توجيه الحياة الخاصة في خدمة المشروع الكتابي، هي الطريقة الوحيدة المحتملة و(العملية) للبدء في تكوين شخصية الكاتب وصقلها، وكلما كان هذا الوعي مبكراً كانت الثمرة الكتابية أجدى وأسرع، ودون الإصرار ف(الموهبة) وحدها لا تصنع شيئاً؛ فالكتابة عملية تحفزها (حالة ذهنية) معينة، تلم بالكاتب وتدفعه إلى الإمساك بالقلم، ولذا تجد من واثقه الموهبة متأخراً، وقد قضى شطراً من عمره^(١).



قال نجيب محفوظ: «إذا وصلت إلى مرحلة التنفيذ فأني أعرف أن هناك عملاً

يجب أن ينجز، ولن ينجز إلا بالإرادة والصبر، فلا أعرف دلال الإلهام»^(٢).

ويتم هذا التوجيه من خلال طرق عدة تعمل على تكوين (عادة) الكتابة وصقلها، وقبل هذا لا بد أن يكون الشعور بكونه (كاتباً) قد أُلهم به، وأخذ بمسارب نفسه - وإن لم يكتب شيئاً مذكوراً - فيكون هذا له أثر بتحول الادعاء بعد زمن إلى طبيعة وعادة.

وأهم هذه الطرق



كلمة ممارسة الكتابة

(ممارسة) الكتابة دون كلل أو ملل، فالكتابة تتولد من الكتابة، فيعتمد على معالجة ما يقرّره من المعاني بما يناسبها من اللفظ، وما يناسبها من غرض الكلام ومقامه،

(١) انظر: مقتطفات (ص ٩٤)، اسمها تجربة (ص ٢٢٨)، الكاتب والآخر (ص ٥١)، رسائل إلى روائي شاب (ص ٧، ص ٩).

(٢) أتحدث إليكم (ص ٤٩).



فالنسباجة لا تُتعلَّم على اليابسة، وقيادة المركبة لا تُتعلَّم بالكلام، وإلا كانت معرفة نظرية لا قيمة لها، فكذا لك الكتابة تُتعلَّم من خلال التمرين والتدريب؛ فيصيب ويخطئ ويقوم ويعثر؛ حتى تتكوَّن لديه ذاتة

كتائية جيدة، وهذا أحد (أسرار) الكتابة^(١)، وهذا الذي يميز بين الكتابة الرديئة التي لم تَل حظها من التدريب الصَّحيح، وبين الكتابة الجيدة التي صقلها التدريب والتجربة القويمة... قال ابن الأثير: «الدُّربة والإدمان أجدي عليك نفعاً، وأهدى بصراً وسمعاً، وهما يُريَانك الخبر عياناً، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً»^(٢)، وقال الجاحظ: «يقال: إنَّهم لم يَرَوْا خطيباً قطّ بليداً إلاَّ وهو في أوَّل تكلفه لتلك المقامات، كان مُسْتَقْلاً مستصلاً أيامَ رياضته كلها، إلى أن يتوقَّع وتستجيب له المعاني، ويتمكَّن من الألفاظ»^(٣).

وقال ماريو بارغاس: «جميع الروائيين الكبار والرائعين كانوا في أوَّل أمرهم

مخريشين متمرِّنين، وراحت موهبتهم تتشكَّل استناداً إلى المثابرة والاقتناع»^(٤)،

وقال أرسكين كالنويل: «كُتبت عشرات القصص خلال السَّنة الفافئة، وشعرت

بأنَّ مستواها الفني يتحسن بأطراء»^(٥).

(١) انظر: اسمها تجربة (ص ٢٢١، و٢٢٥)، تقنيات الكتابة (ص ٧١).

(٢) المثل السائر (١/٢٥).

(٣) البيان والتبيين (١/١١٢).

(٤) رسائل إلى روائي شاب (ص ١٥).

(٥) اسمها تجربة (ص ٥٣).

وقد لاحظ الرافعي تطور كتابة الشيخ محمد عبده عبر الزمن، فقال: «تداولت الكتاب الذي جُمعت فيه آثار الشيخ محمد عبده وهو عندي منذ طُبِع، ولكني لم أقرأه، ثم أخذت أتصفحه من أوله، فرأيت كتابة الشيخ أيام بدأ يكتب وهي لا تستحق أن تقرأ، ولا تساوي شيئاً... وبعد سنة واحدة رأيت للشيخ آثاراً لا بأس بها، ولم تكدمضي سنتان حتى تدفق الرجل، ثم استفاض بعد سنوات، ثم ظهر الشيخ محمد عبده كما عُرف بعد ثماني سنين»^(١).

يستطيع المتدرب أن ينتهج أساليب عدة في التمرين والممارسة:

📖 **فمن ذلك (المحاكاة) في الكتابة،** فالكاتب الجديد إنما ينشأ أولاً عن طريق التأثر والتقليد لمن سبقه، حتى يستطيع بعد ذلك أن يصل إلى الأصالة الكاملة، ويقف على قدميه، فيتقن طريقة أحد الكتاب، ويسلك سبيله في التعبير والأسلوب، فإذا تمكن من ذلك شقَّ له طريقة مبتكرة في الكتابة يُعرف بها، ولا يقتصر في محاكاته تلك على أسلوب واحد، فلا يرسم في ذهنه إلا ذلك الأسلوب، وإنما يختار ما يناسب الكلام والحال. قال ابن الأثير: «أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين، ويطلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني، ثم يحذو حذوهم»^(٢). ويمكن أيضاً إقامة مقالات وقصص على (أطر) و(قوالب) استخدمها كتاب آخرون، ومع المراتب الدائم سوف يتمكن من ابتداء هياكل جديدة من ابتكاره^(٣).

(١) رسائل الرافعي (ص ٦٢).

(٢) المثل السائر (١٠٠/١). وانظر: الإنشاء لابن عاشور (ص ١٢)، أحدث إليكم (ص ١٣٧)، الكاتب وعالمه

لشارلس مورجان (ص ٢٣٢)، رحلة جبلية رحلة صعبة (ص ٨١).

(٣) انظر: تقنيات الكتابة (ص ٩٧).

أرباب الأدب في فترة زمنهم الأول، تأثروا في شذوهم بأدباء وقتهم، وكان هذا عارضاً لم يستمر طويلاً، فهذا الأديب علي الطنطاوي يقول: «أنا لا أنكر أنني تأثرت حيناً بالمنفلوطي، وحيناً بالرافعي، وحيناً بالمازني، وحيناً بجبران»^(١).

وينبغي ألا يستمر هذا الاحتذاء طويلاً، بل يقتصر على البدايات، وكلما طال به التقليد والمحاكاة زمنًا، فهذا يجعله يستطيط هذا القدد، ويسير على هذا المسلك.



قال المنفلوطي: «لا أحب لأحد الشّادين في الأدب أن يكونوا مقيدين في الكتابة بطريقتي أو طريقة أحد من الكتّاب غيري، وليعلموا إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر، أنني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل التي يعلمونها بهذا الأسلوب، إلا لأنني استطعت أن أتفكّ من قيود التمثّل والاحتذاء»^(٢).

وقال الربيعي: «أعرف كتّاباً كثيرين انتهوا إلى لا شيء؛ لأنهم ساروا على دروب الآخرين»^(٣).

وثم طريقة أخرى نافعة في الارتياض والتمرّن، ذكرها المتقدمون من علمائنا، ويكون هذا ابتداءً بقراءة قطعة أدبية مراراً، وتدبرها وتقليب تراكيبها، ثم حذف منها عبارة أو كلمة ووضع من عنده ما يسدّ سدها، ثم بعد ذا يترقى

(١) ذكريات الطنطاوي (٢٣٧/٣). وانظر: قصص من التاريخ (ص ٧ الحاشية). وفدوى طوقان كما في رحلة جبيلية رحلة صعبة (ص ٧٩) تأثرت بأسلوب محمد حسن الزيات في فترة زمنية.

(٢) النظرات (٣٩/١).

(٣) الخروج من بيت الطاعة (ص ١٦٣).

درجة أخرى، فيعتمد إلى (حلّ) الشُّعر و(عقد) النثر، فيأخذ رسالة من الرُّسائل، أو قصيدة من الشُّعر، ويقف على معانيها، ويتدبرها، وما فيها من إبداع، ثم يكلف نفسه عمل مثلها مما هو في معناها، وهي درجات متعددة؛ فأقلها أن يكون ذلك بمثل معانيها وألفاظها دون زيادة، وأجودها أن يزيد عليها في المعاني والألفاظ مع المحافظة على فكرتها، ويمكنه الابتداء بالأسهل تناوُلًا، وهو محاولة التعبير عن الحوادث والصفات، ومظاهر المخلوقات، ثم يرتقي إلى خلجات النفس ودواخلها^(١).

📖 **ومن نصائح الرافعي لأحد تلاميذه:** «اجعل لك كل يوم درسًا أو درسين على هذا النحو؛ فتقرأ أولاً في كتاب بليغ نحو نصف ساعة، ثم تختار قطعة منه فتقرؤها حتى تقتلها قراءة، ثم تأخذ في معارضتها على الوجه الذي تقدم -تغيير العبارة أولاً ثم معارضة القطعة كلها ثانياً- واقطع سائر اليوم في القراءة والمراجعة»^(٢).

كثرة القراءة:



📖 **(القراءة)** هي قوت الكتابة، وتقع في المركز الأول للنشاط الإبداعي للكاتب، وهي وسيلة لاكتساب الكتابة، والتألف مع الكتابة القويّة والاندماج معها، ومعرفة الضعيف والحذر من تسلله لكتابته، وتقويم تجربته الخاصّة بإزاء تجارب الآخرين.

(١) انظر: المثل السائر (١/١، ١٠٣، ١٠٨)، الإنشاء لابن عاشور (ص ١٥)، رسائل الرافعي (ص ٤١).

(٢) رسائل الرافعي (ص ٦٢).

قال العقاد: «ربما كانت سهولة الكتابة عندي نتيجة مستفادة من سهولة

القراءة»^(١).

وقال كاتب: «يجب أن تقرأ بقدر ما تستطيع، تلك هي أفضل طريقة لتتعلم

كيف تكتب»^(٢).

(مطالعة) المقولات العلمية والنثرية،

والمقطوعات الشعرية، وإدامة النظر فيها،

وحفظ ما يمكن منها؛ لكي تصبح مخزناً له، يلجأ إليه

حال الحاجة؛ فإن مطالعة كلام البلغاء والنسج على

منوالهم، وتتبع أخبارهم، وسبر أذواقهم في انتقاء الألفاظ وابتكار المعاني، يحصل

به القارئ ما لم يحصل من دراسة قواعد الفصاحة

والبلاغة^(٣)، «ويطوّل الاختلاف إلى العلماء،

ومدارسة كتب الحكماء، يَجُودُ لفظه

ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى

أكثر من ترك التعلم، وفي فساد البيان

إلى أكثر من ترك التخير»^(٤).



(١) حياة قلم (ص ٣٩).

(٢) كيف نكتب؟ (ص ٢٤٢).

(٣) انظر: الإنشاء لابن عاشر (ص ٤٣).

(٤) البيان والتبيين (١/ ٨٦).



إلا أن هذا مشروط بنسيان ما حفظ في أثناء الكتابة واختفاء تلك الألفاظ والقوالب، وإن كانت آثارها باقية في ألفاظه ومعانيه التي يتشّشها من نفسه.

قال خالد القسري: «حفظني أبي ألف خطبة، ثم قال لي: تناسها، فتناسيتها، فلم أرد بعد ذلك شيئاً من الكلام إلا سهل عليّ»^(١)، والمنطوطي لم يكتب إلا بعد أن حفظ كثيراً من عبارات كتاب (الأغاني) وأدمن مطالعته^(٢)، وحفظ الرافعي كثيراً من كتاب (نهج البلاغة)، وقال الزركلي عن المازني: «كان جلدًا على المطالعة، وذكر لي أنه حفظ في صباه (الكامل) للمبرد غيبًا، وكان ذلك سرّ الغنى في لغته»^(٣).



تقيد) الكلمات البليغة، والأجمل البديعة،

بقلم البصير المنتقي للمختارات، ومراجعة
المكتوب بعد الفينة والأخرى، ولما ذكر أبو حيان

ما يلزم الكاتب العناية به قال: «جمع بدد الكلام، ثم الصبر على دراسة محاسنه، ثم الرياضة بتأليف ما شاكل كثيراً منه، أو وقع قريباً إليه»^(٤).

وفي أثناء القراءة سيقف على كلمات جميلة المبنى، سهولة الأداء، ذات إيجاء ونغم، تجري على ألسن الكتّاب، ولكل كاتب معجمه الخاص به، أو كلمات يختارها

(١) عيار الشعر (ص ١٥)، البصائر والذخائر (٩٧/٧).

(٢) كما ذكر ذلك الرافعي في رسائله لأبي رية (ص ٢١٩).

(٣) الأعلام (٧٢/١).

(٤) البصائر والذخائر (١٠/٣).

دون غيرها، يجعلها في تضاعيف كلامه، ومن تلك الكلمات: (تحفل)، (الطريف)، (التلبد)، (يرسّف)، فهذه كلمات معبرة ينبغي عقد اليد عليها.

وقد يجد بعض البيّغية في الكتب المؤلفة في الألفاظ، ومن أسبقها كتاب (الألفاظ الكتابية) للهمذاني الذي قال فيه الصّاحب بن عباد: «لو أدركته لأمرت بقطع يده ولسانه؛ لأنه جمع شذور العربية الجزلة المعروفة في أوراق يسيرة، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدبين تعب الدّرس والحفظ والمطالعة»^(١)، وكان هذا الكتاب معتمداً بعض الكتب المعاصرين^(٢).



(١) التّوابع بالوفيات (٦/٩٠).

(٢) انظر: كيف حملت القلم (ص ٤٨).